أزمة الدلالة والغيرية: من الانعطاف المتعالي إلى تيه الأثر

-دريدا قارئا هوسيرل-

***

د. معرف مصطفى*

مقدمة**

انطلاقًا، من أن الفينومينولوجيا تبدأ بالعودة إلى الأشياء ذاتها كما هي، أي كما تتبدى بالفعل أمام الذات، حَاولَ إدموند هوسيرل (1859-1938) Edmund Husserl تأسيس الفينومينولوجيا Phénoménolog كعلم كلي للماهيات، تدفعه في ذلك نزعته الرياضية المنطقية، وتوقه إلى الصرامة والوضوح والكلية، بغية انتشال العلوم من أزمتها المنهجية ومن انحدارها إلى التجزؤ والتشتت[1]، الذي أنتج بدوره أزمة في الدلالة والمعنى. وجراء ذلك، جاء سعي هوسيرل لتأهيل الفلسفة حتى تكون علمًا دقيقًا صارمًا، مطمحًا استراتيجيًا لاستعادة دورها الأصيل، من خلال الأفاق المنهجية للفينومينولوجيا.

كان همُّ هوسيرل، هو العودة إلى إعادة إحياء النظرة الكلية للمعرفة، ومن ثم فإن المفهوم القديم للفلسفة، باعتبارها وحدة كلية للعلوم، سوف تظل -برأي هوسيرل- ضرورة لا بدّ منها، خاصة في صورتها المثالية الأفلاطونية، واعترافه أن الفينومينولوجيا تفكير حول المعنى، والأشياء، والحياة الإنسانية، انبثقت بشكل من الأشكال عن الفلسفة اليونانية، زيادة على المؤثرات الفكرية لـ ديكارت[2]، حيث عدّ هوسيرل السياق الفلسفي لظهور الفينومينولوجيا، كتوسيع جذري وكلّي للتأملات الديكارتية.

كما يعترف هوسيرل في موضع آخر، أن الفلسفة المتعالية شهدت تأسيساً ديكارتيًا، إضافة لتأثيرات علم النفس الفينومينولوجي، عند كلا من: لوك، بركلي، وهيوم، وكذا تأثير التوجهات المنهجية والنظرية لـ: ليبنتز، كانط، برنتانو. هذا الأخير، الذي كان له الفضل في فكّ الإشكال المتعلّق في الجمع بين علم النفس باعتباره علماً تقريريًا، والمنطق باعتباره علماً معياريًا، حيث اقترح برنتانو لحل هذه المشكلة بطريقة مدرسية، مبدأ الإحالة المتبادلة بين الشعور الداخلي، والموضوعات الخارجية، متمثلاً، في فكرة القصدية Intentionnalité، التي تجمع الذات بالموضوع في فعل الإدراك، حيث أن الموضوع المدرك لا

---

* - أستاذ بجامعة سيدي بلعباس.

** - Résumé: En élargissant une réflexion générale sur la phénoménologie, Derrida propose une lecture critique, profonde et audacieuse de Husserl. Il introduit les principes de la déconstruction tel que la grammatologie, la différance, la trace, l'archi-écriture; par lesquels, il va ébranler la signification transcendantale chez Husserl, et par la, la place et la valeur de l'autre au sein de sa philosophie.

[1]- ينظر: هوسيرل، إدموند: فكرة الفينومينولوجيا، تر: فتحي انقزو، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007، ط2، ص 15.

[2]- ينظر: هوسيرل، إدموند: تأملات ديكارتية، المدخل إلى الفينومينولوجيا، ترجمة: تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1958، د ط، ص ص. 42- 43.

يخرج عن الوعي في الاعتبار الفينومينولوجي، فيستلزم عندئذ، أن يقصد الوعي موضوعه، لتصبح القصدية جوهر المقولات الفينومينولوجية التي استقاها هوسيرل من برنتانو[1]، كتوجه واع نحو الموضوع.

عندئذ، تصبح القصدية مع هوسيرل بنية كلية للوعي، وهي المسألة التي فصل فيها في الأبحاث المنطقية الخامسة، بما أتاحت من تحقيق التجاوز في جعل الشعور ذاتًا وموضوعاً، حيث سيعمل على إنهاء التعارض التقليدي بين الذات والموضوع، وبالتالي، وَضعَ حدّاً للصّراع التاريخي بين المثالية (التي تمنح الأولوية للذات)، والواقعية (أولوية الموضوع)، ليصبحان -مع هوسيرل- وجهين لشيء واحد، هو الشعور، حتى غدا الشعور الداخلي بشتى أفعاله المحور الأساسي لوصف العالم الخارجي، وفهم حقيقته وحدس ماهيته، كصقل للمنهج الفينومينولوجي المتعالي، كون أن الفينومينولوجيا، على حدّ تعبير ليوتار: "نبتت في حضن أزمة النزعة الذاتية"[2].

تكون مهمة الفينومينولوجيا بهذا، هي تحليل الشعور أو القصد المتبادل الذي يرتد للمعرفة، أي في أفق الإمكانيات الممكنة للإدراك وللوجود[3]. ولذلك، شكلت الأبحاث المنطقية سنداً حيويًا لتحليل إمكانيات وكيفيات التمظهر، ومثّلت في الوقت نفسه، الفضاء الذي تمّ فيه إبراز مختلف أنواع القصدية ومستوياتها، وكذا، الفواصل التي تكون مختلف أشكالها، طالما أن الفينومينولوجيا تتقوم كفلسفة معنى ودلالة.

لهذه الاعتبارات المنهجية، يولي هوسيرل اهتمامًا خاصًا لتحليل وفحص القصدية في سياق مستوياتها الدلالية المختلفة والقصدية اللّغوية بهذا المعنى، ليست شيئاً آخر سوى كونها مختبراً للقصدية بشكل عام. فزيادة على تحوّلاتها الأنطولوجية، فهي كذلك منطقية، حيث يستكمل هوسيرل، وضع اللّغة بحسب نظام الوعي، حيث التساوق بين الأفعال المنتجة للمعنى والعلامات والتعابير. لذلك، تُعدّ القصدية اللّسانية عنده نموذج كل القصديات، غير أنها ورغم أهميتها، فإنها لا تعني بالضرورة، أن كل قصدية هي من طبيعة لسانية. انطلاقا من أن الدلالة، ولاسيما الدلالة اللّغوية Signification linguistique، هي أولاً، قصدية، مَا يستدعي حسب هوسيرل التفرقة بين الدلالة والبنية الداخلية للّغة.

تلك هي المسائل، التي قارب واستثمر فيها هوسيرل، جهود تواردوسكي في نقده لإسمية وحدسية برنتانو في هذا المجال، لاسيما تفرقته بين ما كان يعنيه برنتانو بالمحتوى والموضوع، مضافًا إلى ذلك بولزانو، المنظر الكبير لمثالية المعنى، أي لتصور المعنى في ذاته، أو بتعبير آخر، اكتفاء المعنى بذاته، وقدرته على الانفصال عن الموضوع الذي يرتبط به ويتجاوزه. هذا الجانب تحديداً، هو ما يكرس

[1] - خاصة بعد ظهور كتاب برنتانو الشهير "علم النفس من وجهة نظر تجريبية" سنة 1894، أين عرض بإسهاب فكرته المركزية عن الظواهر النفسية التي تشمل على اتجاه قصدي قائم في الشعور.

[2] -Lyofard, Jean- François: La phénoménologie, édit: Quadrige/ PUF, Paris, 2011, p.07.

[3] -Voir: English, Jacques: Le vocabulaire de Husserl, édit: Ellipses, Paris, 2002, pp. 74- 75.

الطابع المثالي للدلالة عند هوسيرل، الذي وجد توجّهها القبلي من خلال نموذج الرياضيات الخالصة. ولعلّ هذا الانعطاف المتعالي في وسم الدلالة الهوسيرلية، هو ما يزيد من استحداث بنية الوعي على هيئة نويتيقية-نويمائية[1]، ومن ترسيخ القول الفينومينولوجي في اللّغة، أي في العبارة كقدرة على إنتاج المعنى في وجهه المثالي الأكمل.

ففي أفق تصوره الفينومينولوجي الترنسندنتالي للعلامة، ميّز هوسيرل بين العبارة Expression والإشارة Indice ، فالعلامات الإشارية، تتحدد من خلال تعيّين وتميّيز الخصائص التي تساعد على تعريف الأشياء، والمواضيع التي ترتبط بها، كارتباط وإشارة الدخان إلى النار مثلاً. ولذا، فإن الخاصية التي تسم الإشارة هي كونها وسط يختزل وجود أشياء أخرى، أو يكون محفزاً بالمعنى الرمزي الإشاري لتصور موجودات أخرى، وكذا حالات وجودها المفترضة.

أما العلامات العبارية، فتكمن في أن كل علامة من نفس النّوع، هي عبارة، سواء كان هذا الخطاب ملفوظاً علانية، أي سواء تمّ الجهر به بصورة صريحة، أولم يتم التلفظ به، إذ في ذلك إشارة صريحة من هوسيرل إلى الطابع المتعالي لتحقق الدلالة والمعنى من خلال العبارة[2]. لتغدو العبارة جراء هذا الامتياز الجواني، علامة من طبيعة مثالية، فيما وراء التلفظ الذي يعكس المستوى التمثيلي الخارجي للّغة، الذي يعدّه هوسيرل ثانويًا. الشئ الذي يمكن من مقاربة ما إذا كانت العبارة في وظيفتها التواصلية، متداخلة مع التمظهرات الناتجة عن تجربة المعيش النفسية.

فالتباين والاختلاف الجوهري بين هذين النوعين من العلامات، يكمن في أن العبارة هي علامة دالة، بينما تحيل الإشارة، إلى شيء آخر من دون أن تكون حاملة للدّلالة بالضرورة، كإشارة العظام والمستحثات المتحجرة وشهادتها على وجود كائنات منقرضة، من دون أن تكون هي دلالتها الكاملة أو المتحققة؛ فالإشارة من هذا المستوى، تحيلنا إلى شيء آخر، واهبة لنا تحفيزاً للاعتقاد بوجود هذا الشيء، فهو -أي الشيء-يرتبط ارتباطاً سببياً بالإشارة، إلا أن المسألة مختلفة عندما يتعلق الأمر بالعبارة.

انطلاقا من هذا، فإن المعنى عند هوسيرل شيء مرتبط بفعل وبإنجاز، أو على الأقل بشيء يختبر، واختبارية المدلول هذه، يمكنها أن تكون أشد راديكالية في صيرورة البحث في علاقتها بالذات، وكذا في تمثلاتها من قبل الوعي ذاته،وبالتالي، تأتي الدلالة اللّغوية في مرحلة لاحقة، كشيء إضافي، ليس ككشف دلالي بقدر ما هو تتويج وتعبير عن الدلالة، اي كحامل رمزي خارجي لإمكانيات تحقق العلامة - المعنى.

---

[1]- ينظر:هوسيرل، إدموند، الفلسفة علماً دقيقاً، تر: محمد رجب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ط1، ص19.

[2]-Voir: Cabestan, Philippe et autres: Introduction à la phénoménologie contemporaine, édit: Ellipses, paris, 2006, p.12.

إن جوانية المعنى وانفصالها عن برانية اللّغة، تمثل عند هوسيرل نواة التوجه المتعالي، الذي يتأسس على تصور المعنى، فيما وراء اللّغة كمعطى قبلي مثالي متحقق[1]. وبالتالي، فإن المعنى شيء يأتي وينتج ضمن نوع من الأفعال. ذلك أنّه، ما من مكان آخر للدلالة الهوسيرلية خارج فعل الذات: هاته الذات التي تنتج المعنى، أما الدلالة، ومن خلال الفعل القصدي كمدلول، فإنها مجرّد سبيل للوصول إلى الموضوع، لتأتي اللّغة بعدئذ كمحصلة علامات تعبيرية، أي كتنفيذ ثانوي للمعنى المثالي العميق الثاوي في خبرة الذات. فالمنحى الأساسي في فينومينولوجيا هوسيرل الترنسندالية هو أن الطريق إلى الدلالة "لا بد أن يتبدّى من الوعي، أو من الصور المختلفة للقصد"[2].

بهذا، يبدو أن أصالة التعبير عند هوسيلي لا تستند أساساً إلى الكلام، بل إلى الرؤية الفهمية المتعلقة بالأشياء، القائمة في الحياة اليومية كمعيش في العالم. وهو ما سيقود إلى الكلام عن الشروط الموضوعية، الناتجة عن قصدية التعبير والإبلاغ، من متكلم إلى متحدث مفترض. وكذا عن مدى اختبارية المعنى، باعتباره معنىً واحداً بالنسبة لهؤلاء المشتركين في الحديث، الذين يتواصلون -ومن مستوى موضوعي-من خلال الصّيغ التعبيرية اللّغوية، التي تأخذ معناها التواصلي عند هوسيرل، من العبارة التي ترتبط بها جوهريًا.

ومن ثم، يمكن ملاحظة أرتركيز هوسيرل على الوظيفة ا لتمثيلية للّغة، أنتج لديه نوعاً من العزوف عن الجوانب الوظيفية التواصلية للّغة، لأنه يفضل اختبار وفحص اللّغة انطلاقاً من الحوار الداخلي في الحياة الوجدانية للأنا وحدوية solipsisme، التي تعكس صورة اكتفاء الأنا بذاتها متحاورة مع ذاتها، ذلك أن الخاصية التعبيرية عند هوسيرل باستطاعتها أن تظهر فقط حين يعطل التواصل مع الأخر، برأي دريدا.

هذا البراديغم الفينومينولوجي الترنسندنتالي Transcendantale لا يسمح -برأي دريدا- بتبادل الكلام، لأنه يفهم التواصل كفعل سطحي، بل إن أصالة التواصل الجواني تتحقق دائما في غياب الآخرين كمحو للغيريةAltérité، في غياب الاختلاف، في اكتفاء الحياة المنعزلة للروح، فالتعبير مثل النفس أو الروح للمعنى، واللّغة مجرد جسد مادي تنفتح الروح فيه، وتلك هي الحيلة السرية للظاهرية مثلما لاحظ دريدا.

إن الدلالة التي يربطها هوسيرل بالذات محفوظة دوما للذي يتكلم، فهي دلالة مثالية تلازم ذات حاضرة متكلمة كحضور متماثل مع نفسه. بهذا، فقدر الذات عند هوسيرل هو المعنى والدلالة، محكوم عليها أن تقول، أن تجترح معنى، هو سابق للكلام، ذاتي، ثابت وللأبد بمكان ما قد نسميه الوعي، بإمكان المرء أن يستحضره كلما أراد ذلك، أما تحويل المعنى أو الدلالة إلى كلام أو لغة، يظل بنظر هوسيرل عملاً ثانويًا، نوعا من السقوط في الخارجانية المادية، وابتعاد عن الأصل.

---

[1]-Voir: Derrida, Jacques: La voix et le phénomène, édit.: PUF, 4éme édit., Paris, 1983, pp. 21-22.

[2]- سلامة، يوسف سليم: الفينومينولوجيا المنطق عند إدموند هوسيرل، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2007، د ط، ص 14.

هكذا، يعطي هوسيرل امتيازاً لنسق العلامات التي تقترب من لغة مثالية، كون "العبارة حاملة للدلالة التي تعني بذاتها"[1]، طالما أنها تتسق وتزكي فرضيات التسمية الأحادية، ومن دون أن يغفل هوسيرل، عن مثيلاتها من العبارات المبثوثة في اللّغة العادية، أين يعمل على تشخيص نسقي للتغيرات الدلالية للكلماتفاللّغة العادية، زيادة على احتوائها لعبارات متغيرة ومنزاحة دلالياً، فإنها تضم كذلك، عبارات إستعارية.

وبالتالي، فإن هذا الإبهام والالتباس الذي تتسم به كلمات اللّغة أحيانًا، لا يسمح بإرجاعها إلى وحدة أحادية التسمية للدلالات المثالية الممتلئة[2]، لأن المعنى الإيحائي أو الرمزي، موجود ليس فقط موجها لتغطية نقص في اللّغة، ولكنه بالأحرى نتاج تجدّد سيميائي حيوي، إنه شهادة على خصوبة تطعيم اللّغة بمعاني مشفرة مقصودة.

من خلال فينومينولوجيا التذاوتIntersubjectivité ، يقارب هوسيرل مسألة الغيرية، كتجربة عالم معيش متجذرة في العالم، تتيح بتكثيف مستمر في فهم تجربة الغير، حيث يرتبط مفهوم التواصل عند هوسيرل بتجربة عالم المعيش، في نسج أفق فينومينولوجي لتصور طبيعة العلاقة بالآخر حيث يرى أن التذاوت ما هو إلاّ "حضور الآخر في أناي، أو أناي في الآخر"[3]، كتغيير قصدي من منطلق تذاوتي يماثل عالم المونادات، كما هو ماثل عند ليبنتز.

وتبعًا لذلك، فإن عالم المعيش هو عالم مدرك، يمتلك قنوات من الإحالات، أين يمكن للأشياء أن تحدث معنى. والإنية Ego باعتبارها طرفاً محوريًا في عملية الإدراك، وجزءاً من هذا العالم، هي بدورها منفعلة، إذ يلحق بها تأثير هذا العالم. كما أن هناك أصل لظهور هذا الأنا، أشار إليه هوسيرل في التأملات الديكارتية، ناعتاً إياه كانتزاع للمعرفة الأصلية البدئية، وبالتالي، كأصل لكل تواصل ممكن، وتأكيداً لشرعية التداولية المتعالية. لتصبح بهذا، الحياة الإنسانية كتجمع ممكن[4]، مثل حياة اللّغة كوحدة وترابط مجتمعي، وكذا من زاوية تكوين الآخرين كتعالي صرف، أي كذوات يمكنها أن تخترق أناي المونادية Monadique ، من خلال جدلية الأنا والآخر كموضوع في العالم.

كل ذلك حذا بِـ جاك دريدا(1930-2004) Jacques Derrida، وانطلاقا من إستراتيجية التفكيك Déconstruction، من العودة إلى ادموند هوسيرل كأحد أبرز ممثلي الميتافيزيقا الغربية في شكلها المعاصر، حيث عمل على تقويض أهم نصوصه الفلسفية، بدءاً بترجمته لأصل الهندسة لهوسيرل، ثم تفكيك مفهوم العلامة واللغة وتبعاتها التواصلية في كتابه الصوت والظاهرة. وكذا، البحث في مفهوم الأصل عند هوسيرل، وتبعاته الميتافيزيقية مثل مبدأ المبادئ، حتى أنّه ليمكن القول، أن تفكيكية دريدا

---

[1]- Benoist, Jocelyn et autres: Husserl, édit: Cerf, Paris, 2008, p 12

[2] - ينظر: هوسيرل، إدموند: مباحث منطقية، عناصر إيضاح فيمياء المعرفة، الكتاب الثاني، ج2، تر: موسى وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2010، ص 29.

[3] -Merleau Ponty. M.: Signes, édit: Gallimard, paris, 1960, p.121

[4] -Voir: Châtelet, François: La philosophie de Kant à Husserl, édit: Marabout, Verviers, Belgique, 1979, pp. 296- 301.

هي من أقصاها إلى أقصاها، رجّ وقراءة نقدية مختلفة، راديكالية أحيانًا للإرث الهوسيرلي، وامتداداته المختلفة.رغم اعتراف دريدا بأن هوسيرل، هو ذلك الفيلسوف الحاذق الذي علّمه تقنية في التفكير تستند على صرامة المنهج.

فمن خلال العودة إلى الطرح الفينومينولوجي، حاول دريدا أن يجد ويجدد الأسئلة، من داخل قراءته المعمقة لنصوص هوسيرل، مثل تفكيكه للمدلول المتعاليSignifié transcendantal ، ومبدأ المبادئ الفينومينولوجي، بالعودة إلى الأشياء ذاتها، كقاعدة حدسية في معطائية الشيء ذاته في حضوره. حيث يفكك دريدا الفينومينولوجيا المتعالية لـِ هوسيرل كامتداد لتاريخ الميتافيزيقا، الذي تجسد فيه الاهتمام البالغ بالصوت والكتابة الصوتية في علاقتها بالتاريخ العام للغرب.

لقد مثلت الفينومينولوجيا بالنسبة لـ دريدا، الأفق النظري والميتافيزيقي لاستراتيجيات عمل التفكيك يقول دريدا: "الفينومينولوجيا هي دوما موردا للتفكيك لأنها تسمح بفك الترسبات التخمينية والنظرية والافتراضات الفلسفية". [1]إن ذلك يعني، أن التفكيك هو في ذات الحين حركة فينومينولوجية، تخلصنا وتحررنا من الإرث الميتافيزيقي الذي يثقل الافتراضات والتخمينات الفلسفية، ولكن في الوقت نفسه، محاولة لكشف بعض هذه الافتراضات، ضمن بنية النسق الفلسفي للفينومينولوجيا، مثل اصطدام أو بالأحرى صدمة هوسيرل أمام الكتابة[2] في مؤلفه "مدخل إلى أصل الهندسة".

يعترف دريدا أنه تعامل في بداية عهده مع نصوص هوسيرل، بنوع من الحذر، لاسيما في مقدمته المطولة، في ترجمته لأصل الهندسة، وأنه كان يلجأ للجدل أمام نصوص ظلت إلى حدّ ما، عصية على التحليل إلى عناصر بسيطة[3]، أن كل شيء بدا انطلاقا من وجود شقوق في الحدس البسيط الذي يتخفى.الأمر الذي بدا، كما لو أنه بدأ يعرض الحدسانية للخطر في حتمية استيعاب الشيء ذاته، في حضوره الخالص، الممتلئ، ولكن فوق ذلك، وكأنها تعرض الجدل، وبعض التفكير الديالكتيكي للخطر أيضا، كتصور جديد لما يجب أن تكون عليه الفلسفة.

إنّه دومًا، وباسم شيء يظهر، وكأنه عصي لا يقهر في الاشتراط الفينومينولوجي، يطرح دريدا أسئلته التفكيكية، خاصة وأنه يدرك أن الفينومينولوجيا، تمتلك دوما موارد إضافية لصد الأسئلة التي تواجهها. بيد أن مغامرة الفينومينولوجيا، لم تكتمل بالتأكيد، وأن الأسئلة التي يمكن توجيهها إليها، هي جزء من تاريخها، وهو ما أكده هوسيرل نفسه، ومن بعده هيدغر، ثم زكاه ميرلوبونتي بشكل أكثر وضوح، حينما صرح في مقدمة كتابه فينومينولوجيا الإدراك، من أن الفينومينولوجيا تنفتح على التطبيق والممارسة ككيفية وكأسلوب، وأنها تتواجد كحركة مستمرة، وليس كنسق فلسفي مكتمل ومغلق.

---

[1] -Derrida. Jaques: sur parole, edit, L'aube, Paris, 1999, p80.

[2] - ينظر: دريدا وآخرون، مسارات فلسفية، ترجمة: محمد ميلاد، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2004، ص73.

[3]-Voir: Lawlor, Leonard: Derrida and Husserl. the basic problem of phenomenology, Indiana University Press, USA, 2002, pp: 2- 7.

لاشك، أن اهتمام دريدا بهوسيرل كان مبكرا من خلال أعماله الأولى، فمنذ رسالته الأكاديمية المنجزة بين 1953-1954 حول إشكالية الأصل في فينومينولوجية هوسيرل، لتتوالى الأعمال المكرسة للفينومينولوجيا تباعا، فكان أن شارك دريدا في مؤتمر فلسفي انعقد سنة 1959، تقدم بمداخلة له بعنوان: الأصل والبنية والفينومينولوجيا، لينشر بعد ذلك سنة 1962 عمله المهم، المتمثل في ترجمته لكتاب: أصل الهندسة عند هوسيرل (الذي نال عن ترجمته جائزة جون كفاييز)، ضمنه مقدمة مطولة هامة فاقت المائة صفحة، أنبأت عن اهتمام دريدي خاص وخالص بهوسيرل وبالفينومينولوجيا، لينشر بعد ذلك في سنة 1967 عمله المهم الصوت والظاهرة، الذي كرسه للبحث في مسألة العلامة Signe كما تضمنتها الأبحاث المنطقية الأولى لهوسيرل، فجاءت وبشكل مخالف للدراسات الكلاسيكية التي أجريت حول الفينومينولوجيا، من حيث أن طريقة تناول دريدا لهوسيرل، ستمتاز بنوع من الراديكالية والحدّة في الطرح من خلال "رفض المشروع المتعالي، ومن جهة أخرى نقد المثالية"، وتفكيك الأسس الميتافيزيقة التي تأسست عليها نظرية الدلالة والعلامة عند هوسيرل، مثلما جاء في مقال دريدا الشهير الشكل وإرادة القول " الذي هو قراءة تفكيكية تمحورت حول الأفكار الأولى لهوسيرل Idées1، حيث يفكك دريدا الفينومينولوجيا المتعالية لهوسيرل كامتداد لتاريخ الميتافيزيقا الطويل[1]، الذي تجسد فيه الاهتمام البالغ بالصوت والكتابة الصوتية في علاقتها بالتاريخ العام للغرب.

يعاود اهتمام دريدا بهوسيرل من خلال الالتفاف حول هيدغر، بداية من سنة 1968، لاسيما من خلال قراءاته التي جاءت على هيأة أسئلة كبرى تنفتح على الممكن والمهمش وحتى المستحيل. حيث تمثلت هذه الأسئلة في: هيدغر والسؤال، وفيه فكك دريدا خطاب الأزمة الذي سبق وأن عاد إليه في مقدمته المطولة لترجمة أصل الهندسة، ثم السؤال الأول: الاختلاف الجنسي، والاختلاف الأنطولوجي (1983)، السؤال الثاني: يد هيدغر (1985)، هذا السؤال تحديدا فتح المجال لإعادة قراءة هوسيرل مثل كتاب جون لوك نانسي "اللّمس" (2000) حول اليد، حيث يفكك دريدا من خلال تلك الأسئلة، تآلفا معرفيًا حدسانيًا، مثالي النزعة، طبع الفكر الغربي منذ أفلاطون، عمل على خلق ميتافيزيقا مثالية، لم يخرج هوسيرل نفسه من سحرها حسب دريدا.

كل ذلك كان مدعاة لتفكيك وكشف الجوانب الميتافيزيقة للفينومينولوجيا، وللفلسفة الغربية المتمركزة حول الصوت والكلمة المنطوقة، إذ "ما من كلمة تكون ميتافيزيقية في ذاتها، بل إن طريقة استخدامها هي ما يكون ميتافيزيقيا"[2].

ولعلَّ مصطلح أو مفردة التفكيك، يبدو للوهلة الأولى مضلل في دلالته المباشرة، ولكنه ثري في دلالاته الفكرية، فهو في المستوى الأول يدلّ على التهديم، والتخريب، والتشريح. لكن المصطلح في مستواه الدلالي العميق، يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب

[1] -Voire: Ramond.Charles: Derrida, la déconstruction, edit.puf, 2éme édit, Paris, 2008, p42.

[2]- دريدا جاك: الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص52

عناصرها، والاستغراق فيها، وصولا لكشف البؤر الأساسية المطمورة فيها، إن حركات التفكيك لا تتوسل بنى الخارج، إنها ليست ممكنة ولا ناجعة، ولا تحكم تسديد ضرباتها إلاّ بسكناها هذه البنيات، بسكناها إياها بصورة من الصور. يكون ذلك بانتقالات موضعية، ينتقل السؤال فيها من طبقة معرفية إلى أخرى، ومن معلم إلى معلم، حتى يتصدع الكل: هذه العملية أو الاستراتيجية هي ما دعاه دريدا بـ التفكيك[1].

إنّ تصور دريدا لإمكانية إحداث قطيعة مع هذا الإرث الميتافيزيقي، لا يكون ممكنا إلا بفسح المجال أمام فاعلية الكتابة وفلسفة الاختلافDifférence، فالتفكيك كإستراتيجية، يتعيّن عليه بواسطة حركة مزدوجة، وعلم مزدوج أن يقوم بعكس المقابلة الكلاسيكية، وبنقل عام للمنظومة، أي منظومة المقابلات الميتافيزيقة، القائمة أساسا على منطق التعارضات المشكلة لبنية التفكير الغربي، الذي انتهى برأي دريدا إلى تضخم العلامة، وأن " فلسفة التفكيك مبطنةبفلسفة اللّغة"[2].

يعمل دريدا على تبني استراتيجية حذرة في تعامله مع الميتافيزيقا ومع هذه التمركزات، حيث يدعونا لأن " نقطع شوطا من الميتافيزيقا" ذاتها، لفترة تمكنة من رج وخلخلة العديد من المفاهيم والمسلمات الفلسفية، مثل الأصل، الهوية، الحقيقة، المفهوم...الخ. وكذا التمركزات الميتافيزيقية العتيقة، تمركزات اللّوغوسLogocentrisme ، والصوتPhonocentrisme ، وفلسفة الحضور.لذلك فإنه يتصور إمكانية إحداث قطيعة مع الإرث الميتافيزيقي بفسح المجال أمام إمكانيات الكتابة وفلسفة الاختلاف. الاختلاف في نظر دريدا، هو ما يمكن من الإحالة إلى الآخر، وتأجيل تحققه وتأخيره (الآخر هنا كمعنى أو كغيرية وكأثر)، وهو ما يدعوه دريدا في موضع آخر بالإرجاء الأصلي.

من خلال فلسفة الاختلاف، وتفكيك فلسفة الحضور، حاول دريدا تحرير اللّغة من وضعها الميتافيزيقي القديم، عاملا على "زرع نوع من القلق اللّغوي داخل اللّغة نفسها"[3]، وذلك بتأهيل العلامة الكتابية Signe écritالتي تمكن طاقتها بتعبيره في تفجير الأفق الدلالي، وفي تجاوز الوضع اللّغوي واللساني الذي ينزع نحو امتياز الصّوت[4]. إذ لاحظ دريدا في السياق نفسه، أن دي سوسير يحذو هو الأخر، حذو فينومينولوجية هوسيرل في اختزال العالم الخارجي، أو تعليقهذن والاحتفاظ بأحسنه، وهو في نظريته حول العلامة اللسانيةSigne linguistique ، يفرّق بين الصّوت كمادة تحدث انطباعًا حسيـًا في السمع، وبين الصورة الأكوستيكية التي هي خبرة داخلية للأثر الذي يخلفه الصوت

---

[1]- إذا كانت مفردة déconstruction تعني التفكيك، فإنه النقيض المقابل لمفردة construction الذي يعني البناء أو التشييد، في السابقة dé علامة نزع المعنى وقلبه، وهكذا تتبدى العلاقة التضادية بين مفردة وأخرى من خلال إجراء تغيير طفيف، إذ ثمة مواجهة بين الظاهري والباطني، فإذا كان الأصل هو البناء، فإن ما قبل الأصل يحيل إلى العمران في حالته السابقة عليه، إلى الخلاء، الفراغ، المدى المفتوح، مع كامل التواضعات الدلالية التي لم تكن في الحسبان قبل التعبير.

[2]- دريدا جاك: في علم الكتابة، ترجمة وتقديم: أنور مغيث، منى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص21.

[3] -Steinmetz. Rudy: les styles de Derrida, édit: le point philosophique, Bruxelles, 1994, p45.

[4] -Voire: Mfouakouet.Leopold: Jacques Derrida, entre la question de l'écriture et l'appel de la voix, édit: L'Harmatan, Paris, 2005, p16.

في المستمع، فهو يعطي لنفسه الحق في اختزال بالمعنى الفينومينولوجي للكلمة، علوم الأكوستيك والفيزيولوجيا، في الوقت الذي يؤسس فيه لعلم اللّغة.

واعتبارا، فإن الحضور والغياب، وكذا الارجاء والاختلاف الذي تسمح به العلامة الكتابية، والغراما، أي وحدة الكتابة، في أفق الأنساق الكتابية الممكنة التي تسمح بها الغراماتولوجيا (علم الكتابة)Grammatologie، يبين -حسب دريدا- عدم كفاية العلامات ونقصها، ويكشف في الوقت نفسه، عن عجز العلامة اللّسانية عن تحقيق الامتلاء الذي طالما ادعته. أمّا العلامة الخطية ومن خلال مؤهلاتها السيميائية والغراماتولوجية، تنفتح على أفق دلالي يمكنها من تجاوز إكراهات فلسفة الحضور، الذي يحققه الصوت الحي في ارتداده المثالي مع جوانيه المعنى والدلالة، كما هو الحال عند هوسيرل.

في مؤلفه الصوت والظاهرة، الذي يفكك فيه دريدا مسألة العلامة، اللّغة، التواصل عند هوسيرل، يجد دريدا ضالته في اكتشاف نوع من الغائية المتعالية للفينومينولوجيا[1]، التي بدت له، وكأنها تكرر تأكيدا ميتافيزيقيا، توجب مساءلته، من دون أن يكون ذلك تحديا للفينومينولوجيا حسب دريدا.

وبهذا، فكل ما تستطيع العلامة القيام به، هو أن تذكرنا بما هو غير كائن فيها، أي الإشارة إلى المسكوت والمغيب، ولهذا فالعلامة، أثر Trace، "والأثر في كليته ينجز العلامة بوجهيها الاثنين"[2]، إذا آخذنا بمقولة دي سوسير في تصوره السيميولوجي للعلامة، كاتحاد بين وجهي الورقة الدال والمدلول.

إن دور الأثر -عند دريدا- يتجلى في أن ما هو كائن في العلامة، أي الجزء المتحقق من بنيتها، يحرك الذهن باتجاه ما هو غير كائن فيها، ولهذا السّبب فإن ما هو موجود في العلامة يحمل أثر ما هو غير موجود فيها.

واعتبارا، فإن العلامة الكتابية وبحكم طابعها السيميائي المزدوج الذي يمكنها من الحضور والغياب، ستكون الأساس الذي ينبني عليه المفهوم الجديد لتصور مفهوم الكتابة وللمعنى-الأثر من خلال الغراماتولوجيا، وكذا لتصور فضاءات أخرى ممكنة للجرافيك، حتى لو كانت غريبة عن نظام الصوت، وذلك من خلال نموذج بدئي للكتابة، هو الكتابة الأصلية أو البدئيةArchi-écriture، والكتابة الأصلية، إذا ما كانت هناك واحدة، يجب أن تنتج مكان وجسم الورقة نفسها.

وبما أن الكتابة الأصلية هي أول إمكانية للكلمة، ثم للجرافيك، أو الكتبةGramme ، فإن الأثر هو انفتاح الخارجية الأولى على العموم، ولغز ارتباط الكائن بالآخر، والخارج بالداخل. فالأثر الأصلي، وتجاوزا الكتابة الأصلية، لا يمكنها أن يكونا موضوعا لعلم، أو أن يختزلا إلى شكل الحضور، "إن الأثر

---

[1] - ينظر: زيما، بيير ف، التفكيكية دراسة نقدية، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1996، ص60.

[2] -Derrida. J: de la grammatologie, édit: minuit, Paris, 1967, p 107.

لا يحضر، إنه ليس حضورا، وإنما هو سيمولاكر الحضور، إنه حضور ممزق، متصدع، متحرك، مرجأ، حضور لا يكون حضور، يشكل الإمحاء بنيته»[1].

لذلك، فإن الحضور-الغياب Presence-Absence للأثر، وبعيدا عن تسمية ذلك بغموضه، ولكن باعتباره طاقة لعبه وفسحة إمكانياته، فمصطلح الأثر البدئي Archi-Trace، يجب -بحسب دريدا- أن يتجه صوب هذه الضرورة، وهذا الإمحاء، إنه متناقض، وغير مستقبل في منطق الهوية. فالأثر ليس هو فقط اختفاء الأصل وزوال فكرته، ولكنه يعني فوق هذا أن فكرة الأصل ذاتها لم تختف البتة، وأنها لم تكن أبدا متأسسة إلا بعودة اللاأصل، لأن الأثر هو أصل الأصل، أي أن الأثر الأصلي هو الأصل ذاته، الأصل الذي يتولد عنه كل أصل.

يرى دريدا أن كل النزاعات الثنائية، وكل نظريات خلود النفس والروح هي مواضيع فريدة في مجملها، لميتافيزيقا ظلت تميل نحو اختزال الأثر، إلى الحضور الممتلئ في اللوغوس الإلهي، وتخفيض الكتابة واختصارها في الكلمة التي تحكم هي الأخرى بامتلائها، وكل هذه الحركات الأنطو-تيولوجية حددت معنى الوجود كحضور، وكحياة دون اختلاف، وبالتالي كان "الامحاء هو لحظة تأسيسية لبنية الأثر"[2].

في السياق نفسه، لاحظ دريدا أن التجربة الفينومينولوجية ممثلة في هوسيرل، ومن خلال تجربة التجاوز التي هي في عمقها تجربة الحضور الجواني الممتلئ والوعي الخالص، هي في نهاية المطاف، تجربة تخفيض واقتصاد الأثر Réduction de la trace.

يفهم دريدا تواصلية هوسيرل، كشكل من اكتمالية الميتافيزيقا المبنية على عزلة الفكر واكتفاء الذات بذاتها، وبذلك فإن الآخر، البراني الخارجي يعد ثانويا في عملية التواصل. Communicationوذلك عكس ما تتيحه طاقة العلامة الخطية من التواصل حتى في غياب مرجعها، من خلال العمل في انساق كتابية ولغوية أخرى مختلفة، ليصبح، حسب دريدا، كل شكل من أشكال التواصل في حقيقته كتابة. وهكذا، فنموذج التواصل الذي يتحقق حتى في الغياب، لا يمكن لغير الكتابة أن تحققه في شكل كتابة أصلية بدئية، هي نموذج أصلي لكل شكل تواصلي ممكن. وهو ما عبّر عن طموح دريدا من خلال تصوره الغراماتولوجي المختلف للّغة، تكون فيه الكتابة لحظة مستديمة للاستنطاق وللتوق إلى مناشدة الآخر والاعتراف به، وحيث تكون لغة الأخر "متن يتداخل فيه اللّغوي بالتاريخي، الفلسفي بالديني والسياسي، بكل ما يحيل إلى البحث والتنقيب في أقانيم الهوية وخطاطاتها المنكسرة"[3]، كما يحلو لِـ دريدا أن ينعتها بذلك.

---

[1] -Derrida. J: marge de la philosophie, édit: minuit, Paris, 1972, p 25.

[2] -Jankovic. Zoran: au-delà du signe ;Gadamar et Derrida, le dépassement herméneutique et déconstructiviste du dasein, édit: L'harmattan, Paris, 2003, p 98.

[3]- دريدا، جاك:أحادية لغة الآخر اللّغوية، أو في الترميم الأصلي، تر: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف،ط1 2008،ص 8.

إن الآخر هنا، ليس سببا لتواصل حتمي بالمعنى البرغماتي للتواصل، بل هو شرط بروز النقش، أو أي شكل من أشكال الكتابة، معبرا عنها في أي فضاء ممكن للتوصيل. يريد دريدا من الكتابة أن تكون عنوانًا لهذه الرغبة في السّفر باتجاه لآخر، توكيداً لهذه الغيرية؛ هذا الآخر المختلف، المرجأ، الآخر كأثر غائب يمارس الانسياب والتستر، والآخر المجهول والمنسي، والمنشطر.

وبذلك، فإن الضيافة L'hospitalitéالتي يبتغيها دريدا ليست برنامجاً، ولا لحظة مسبقة لانتهاج سلوك معين، ولا هي مصطلح سياسي أو قانوني، ولا إشارة إلى ما هو أخلاقي صرف، ولكن بالأحرى تحيل الضيافة إلى ما هو ثقافي، باعتبارها تسبغ الذات، بكيفية تتجلى من خلالها أمام نفسها وأمام الآخرين، إنها صدى عميق للاختلاف كأسلوب حياة و"كإصغاء للآخر"[1] بتعبير دريدا. الضيافة الخالصة، هي مبدأ يتوجب الحفاظ عليه لأنه يميز التجربة الإيمانية للإنسان، حيث أننا منكشفون بشكل لا يمكن اختزاله لمجيء الآخر وملاقاته، وهو ما يستدعي "إعادة التفكير في مصطلح الذات انطلاقا من مصطلح الآخر"[2]. الضيافة هي امتثال للآخر الذي يؤثر علينا، ويدعونا للصداقة في غيرية لا مشروطة، ومن ثم، فأن احترام وحب الآخر أعمق مصادر الاتصال بالغير، وأن تسامحًا وضيافة لا مشروطتين، تظلان شرطا لكل غيرية لانهائية برأي دريدا.

- قائمة المراجع

1. يوسف سلیم، الفینومینولوجیا المنطق عند إدموند هوسیرل، دار التنویر للطباعة والنشر والتوزیع، بیروت، د.ط، 2007.

2. زیما، بییرف، التفکیکیة دراسة نقدیة، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعیة للدراسات والنشر والتوزیع، بیروت، ط1، 1996.

3. Châtelet, François: La philosophie de Kant à Husserl, édit: Marabout, Verviers, Belgique, 1979.

4. Deloro. Cyrille: L'autre, édit: Larousse, Paris, 2009.

5. Jean- François Lyofard,: La phénoménologie, édit: Quadrige/ PUF, Paris, 2011.

6. Lawlor, Leonard: Derrida and Husserl. the basic problem of phenomenology, Indiana University Press, USA, 2002.

7. Jacques, English: Le vocabulaire de Husserl, édit: Ellipses, Paris, 2002.

8. Cabestan, Philippe et autres: Introduction à la phénoménologie contemporaine, édit: Ellipses, Paris, 2006.

9. Jankovic. Zoran: au-delà du signe ; Gadamar et Derrida, le dépassement herméneutique et déconstructiviste du dasein, édit: L'harmattan, Paris, 2003.

10. Benoist, Jocelyn et autres: Husserl, édit: Cerf, Paris, 2008.

11. Merleau Ponty. M.: Signes, édit: Gallimard, Paris, 1960.

12. Mfouakouet, Leopold: Jacques Derrida, entre la question de l'écriture et l'appel de la voix, édit: L'Harmatan, Paris, 2005.

13. Ramond. Charles: Derrida, la déconstruction, edit.puf, 2éme édit, Paris, 2008.

14. Steinmetz. Rudy: les styles de Derrida, édit: le point philosophique, Bruxelles, 1994.

[1] -Derrida. J: Adieu à Emmanuel Levinas, édit: Galilée, paris, 1997; p. 44.

[2]-Deloro. Cyrille: L'autre, édit: Larousse, Paris, 2009, p.17.